# كَيفَ أَصبَحتُ مُعلِّماً؟

مؤيد محمد عودة

**دخل ذلك الشاب الجامعة، وهو في حيرة من أمره، ماذا أتعلم؟ ولماذا أتعلم؟ هل للتعلم أم للتعليم؟ هل من أجل كسب الراتب؟ سؤال حيرني في بداية الأمر، ألا وهو كلمة واحدة: لماذا نتعلم؟**

**البعض يقول تعلمت حتى أكون معلماً. والبعض الآخر يقول تعلمت لأن أهلي أرادوا ذلك؟ فلماذا تعلمت أنا؟ وكيف سأتعلم؟ هل تعلمت من أجل التعليم؟ ولماذا اخترت دراسة الفيزياء؟ على الرغم من أن كل النصائح والإرشادات تدعونني إلى التنحي عنها، إلا أن ذلك زادني إصراراً على التمسك باختياري. وخوفا من المستقبل، كنت أنظر بزاويتين حادتين؛ إحداهما: ماذا أريد أنا؟ والثانية: كيف أفعل ما أريد.**

كانت تمر ساعات، وأنا لا أدرك بماذا أفكر؟ وكيف أفكر؟ وما الطريق التي يجب أن أفكر بها؟

فكيف اخترت التعليم على الرغم مما سبق، هل هو المعلم الذي ما زالت كلماته مثل خرير ينهمر من أعلى الجبل إلى الوادي بصفاء السماء، ولكن المزن قريبة مني، أرى المعلم مثل طائر البلبل؟ ولكن سرعان ما يؤول التغريد إلى أنين، فيزيدني حيرة فوق حيرتي، فإذا بذلك يزأر من أمامي ومن حولي ويهمس في الأجواء، أنت في الطريق الصحيح، فأثلج صدري واقتبس القوة منه، فكنت أنظر إليه وهو كالصخرة الصامدة أمام الرياح العاتية من جميع الأنحاء.

ولكن، كما يقال، الأيام الجميلة تمر سريعاً، فإذا بذلك اليوم يأتي، ولكن كيف سنعيش تلك الحياة، من حياة المتشبه بغيره إلى المتشبه به من التعلم إلى التعليم؟ وهل التعلم توقف عند تلك اللحظة؟ فإذا بي أحتار من جديد، ولكن ما زال زئير الأسد يدوي عالياً، فإذا بي أنهض باكراً على أنقاض الحلم الوردي لذلك الطفل حين ذهب إلى مدرسته في اليوم الأول، كأنه عصفور يحلق من دون جاذبية، فتحركه الرياح تارة، فإذا به يستذكر الزئير من جديد تارة أخرى، ولكن ذلك المعلم لم يشأ أن يكون معلماً تقليدياً، بل متميز، ولكن كيف؟ ومتى؟ وأين؟ ومن يمدني بالقوة أم سأكون وحدي؟

فإذا بي أتجه إلى مديرية التربية، فنظرت إلى ذلك الرجل التعب، فحيرني قليلاً أمره، ويقول: «هل تملك شهادة؟». لم أكن أملك سوى ورقة بإنهاء متطلبات الجامعة، وتابع حديثه قائلاً: «انتظر أيام وسنقوم بتبليغك إن كان هنالك شاغر في مكان معين؟». كنت في كل يوم، أنتظر ذلك الشاغر أين ومتى سيأتي؟

الأيام تمر والأهواء تتقلب مع الساعات والدقائق والثواني، ولكن ذلك العاشق يمتطي الجواد مسرعاً، ولكن كنت أنظر من حولي كأن الأقدار لم تشأ أن أكون معلماً! ولكن كما قالوا: «لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس»، ولكن أقولها في نفسي تارة، وإذا بالرياح العاتية تبعثر أحلام ذلك المعلم، إذ يقولها لي ذلك النفير، وكأنه ذلك الكفن الذي لبدت فيه طموحاتي وآمالي، فأرتد وكأن غمامة أغشت عيني، فلم أرَ شيئاً إلا شفاه ذلك الرجل تقول لي: «يا أستاذ هل تذهب إلى

ترمسعيا بديلاً لفترة ثلاثة شهور». فارتدت لي أنفاسي من جديد مثل ذلك الطفل في لحظة الولادة، وقلت له في عجلة من أمري: «نعم أكيد، بقدر أداوم اليوم». فيرد بابتسامة: «لا تستعجل بكرة بتزهق». وقلت في خاطري يا له من مسكين لو عرف ما ببالي لما قالها.

فإذا بي أجهز نفسي لتلك المدرسة، فنزلت بجانب ذلك القوس الذي تتدفق من تحته البوارج، إلا تلك التي ستقلني إلى ميناء التعليم، فركبت تلك البارجة من دون تردد، حتى بي أدخل إلى ذلك الحصن المنيع الذي لا يدخله إلا من ملك قلباً من حديد، ومن حولك الحراس والصناديد، وذلك المبتسم من بعيد الذي يقترب منك، ويقول: «هل أنت المعلم البديل؟». وقلت في نفسي، أنا لست ذلك البديل، بل أنا الصنديد الفتي الذي لا يقهر، فدخلت إلى عرين الأسود، وقلت لهم بكل ثقة أنا المعلم الجديد، فلما نظرت إلى ذلك الفتي الذي يلوح بيده، ويقول: «هل ستبقى معنا طوال العام؟»، فدخلت قلبي نسمة من عبير، وقلت له كما تشاء.

أما بالنسبة لأول حصة، فكانت مثل لمح البصر، فكانت مليئة بالحيوية، كمن يزرع القمح بداية الموسم وينتظر الحب بعد حين، فيمكن أن يكون المحصول جيداً أو غير جيد! وأنا أقولها إن للمعلم الدور الأكبر في التحصيل؛ فالمحصول يحتاج إلى العناية من المزارع.

ولكن كما قالوا: «مشوار الألف ميل، يبدأ بالخطوة الأولى»، وأنا أقول: «لو لم يكن مشوار الألف ميل، لما بدأنا الخطوة الأولى». وكانت هذه خطوتي الأولى في تلك الألف ميل التي ما زالت في حياتي تسير كنسيم البحر لعاشق نشوان.

ويستمر الفارس في التجوال في تلك المدارس، ولكنني أستذكر ذلك الميل من حياتي حين أتاني كتاب التعيين إلى تلك المدرسة، فدخلتها كما كنت في السابق، ولكن سرعان، ما تبدد ذلك الحلم من أولئك الطلاب؛ كمن يحفر في الجليد ليجد الملجأ الذي يقي من البرد، ولكن بعد عودة ذلك، فإذا بتلك السفينة تظهر من بعيد وتحمل معها كتاب الانتقال، وكنت كمن كان يلتقط أنفاسه الأخيرة، ففرحت كثيراً، فإذا بتلك المدرسة ذكور خربثا بني حارث الثانوية، التي ما زلت أعمل بها حتى الآن.

أما قصتي مع مدرستي، فكانت الأجمل من كل القصص التي مررت بها، فبدأت من لحظة دخول المدرسة ذات الحرف (U)، فدخلتها في ذلك اليوم، كمن يبحث عن الحبيب، فهل لي أن أدعوها بالأم الحنون أم العاشقة أم الشريان الذي ينبض ليحييني؟! قد يسأل البعض عن المسافات والبعد الجغرافي؛ وكثيراً ما نعاني من المسافات، ولكنني أقولها ليس البعد الجغرافي بصعب إن أحببت مدرستك، ولكن البعد الخطير إن كانت مدرستك بعيدة عنك تاريخياً، وهذه الطامة الكبرى، فكثير من يمر بالمدارس؛ كشرارة لم تلبث أن أنارت، ولكنني كنت وسأكون البرق الذي يضيء على كل من في المدرسة من أخوة وأبناء وأهل.

فأهل هذه البلد يتسمون بالطيبة والبساطة؛ كالأم التي ترأف بولدها الذي يمثل أمل تلك الأم التعبة. أما قصتي مع الطلاب التي ما انتهت بعد ولن تنتهي، فكانت كمن يمشي على الجمر، ولكنني كنت أنظر إلى ذلك الجمر كالحرير الذي يزين الثوب الجميل، فكل يوم أتعلم منهم قبل أن أعلمهم.

وأقول لمن يقرأ قصتي: إن أردت أن تكون معلماً، فيجب أن تكون في البداية أخاً وصديقاً للطلاب، فالطالب أساس العملية التعليمية، فإن تركت في الطالب معلومة أو نصيحة؛ كمن يزرع المرج بحبة قمح فتملأه السنابل. وأخيراً لا تكن للمعلمين كالزميل بل كن كالصديق الوفي الحنون، فذلك الجيش الذي يقود مسيرتنا له مني كل الاحترام والود، فكنت أنا الابن والأخ، لهؤلاء المعلمين، وكنا كثيراً ما نختلف ولكن لا نفترق ولا نهن على بعضنا البعض.

أما المنهاج الفلسطيني، فهو ليس بالمنهاج الأمثل للطلبة، فهو مليء بالمواضيع التي تسبب ترهق ذهن الطالب، فهنالك تكرار في بعض المواضيع، وهناك مواضيع أخرى يتم المرور عليها مرور الكرام. أما المشكلة الأخرى، فهي أنه يمكن أن يكون الكثير من المعلمين غير متمكنين من بعض المواد، لأنها ليست من تخصصاتهم، وقد يكون الوقت غير كاف، وبخاصة في آخر الفصل، فكثير من المعلمين، ومنهم أنا، يتبقى لديهم بعض المواضيع دون شرح بسبب ضيق الوقت وطول المنهاج، وهذا كله أدى إلى نتاج غير مرض للمعلمين والطلاب أنفسهم والأهل، فهذا يحتاج إلى أن تكون الخطة مدروسة دراسة جيدة.

فكثير من الطلاب يحتاج إلى تكرار الشرح أكثر من مرة. ففي إحدى المرات أشرح موضوع القوة الكهربائية وقانون «كولوم»، ومن ضمنه قوانين الأسس في الرياضيات، فإذا بطالب يطلب مني أن أعيد حل السؤال مرة أخرى، ففكرت في بادئ الأمر أن الطالب يحتاج إلى توضيح الفكرة، ولكن للأسف أن الطالب كان يعاني مشكلة في الأسس، وهذا أدى إلى بطء في فهم الموضوع. ولهذا فإنه يجب ألا نلوم الطلاب، وإنما نلوم المعلمين أنفسهم، لأن الطالب مركز استقبال وليس مركز مساءلة، فالطالب أمانة في عنق المعلم، وهذه الأمانة تحتاج إلى أن نصونها، فمهنتنا مقدسة، وتحتاج إلى أن يكون للضمير الحي المكان الكافي، فإن خلا المعلم من الضمير فقد قدرته على التعليم.

وأنا أنصح المعلمين بالاستفادة من تجارب بعضهم البعض، حتى لو كانت التخصصات مختلفة، فكما يقال: «إن لم يكن فائدة، لا تصيب مضرة». وتجربتي أنا كانت مختلفة عن بعض المعلمين، فأنا أرغب في التطور والارتقاء بالمستوى التعليمي، فعملت مع مراكز تربوية مهمة كمركز القطان للبحث والتطوير التربوي، ومركز التعليم الإلكتروني التابع لجامعة بيرزيت، وكذلك الدورات الخاصة بالتربية، فهي مليئة بالفائدة على الرغم من أن الكثير من المعلمين يراها مملة وسيئة. في النهاية أقول لجميع الزملاء إن أحببت مهنتك أبدعت بها، وكنت كالشمعة المضيئة في الليلة الظلماء.

مدرسة خربثا بني حارث للبنين–رام الله